المنحى الاجتماعي في «فائية» ابن أبي السعلاة

د. أحمد علي محمد(*)

المقدمة:

استقر الشعر العربي منذ الجاهلية في أشكال فنية ومناحٍ مضمونية، أضحت بعامل التقادم قوالب فنية ورسوما موضوعية، لم يخرج عليها الشعراء الذين جاؤوا من بعد ذلك إلا في القليل النادر. فمن ناحية الأشكال جرت مطولات العرب في الجاهلية على أسلوب بنائي يوزع القصيدة بين مقدمة ورحلة وغرض، إذ المقدمة لا تعدو كونها وقوفًا على الديار الخربة والآثار البالية، أو ذكرا للنساء والتشبيب بهن، أو وصفًا للطيف الطارق على بعد الدار وشحط المزار، أو تذكرا لأيام الصبا وتوجعا من المشيب، وربما بدأ بعض شعراء الجاهلية مطولاته بذكر الخمر أو غير ذلك من الموضوعات، حتى إذا ما استوفوا بعض هذه الجوانب في أشعارهم، نزع أغلبهم لوصف الرحلة، وقد كانت رحلاتهم تمضي وفْق سنتين لا ثالث لهما الأولى: وصف رحلة الظعائن وتتبع مسيرها منذ خروجها من الطلل حتى وصولها إلى الماء الجم الغزير الذي يسمح بالتخييم، كما صنع زهير بن أبي سلمى في معلقته، والثانية وصف مشهد الحيوان والصيد في الصحراء، على نحو ما قام به النابغة في صدر

(*) أستاذ في قسم اللغة العربية بجامعة البعث.

داليته. ثم يأتي الغرض الأساسي بعد ذلك كأن يمدح الشاعر أو يفاخر أو يشاتم أو يصف وما إلى هنالك من موضوعات الشعر.

ومن الواضح أن هذا الرسم الفني يلبس العناصر المضمونية بالشكلية، لينهض صرح القصيدة العربية من الناحية البنائية على التنوع بين موضوعات الشعر، فيجمع الشاعر في قصيدة واحدة عددا من الموضوعات، كأن يصف الطلل ويتابع مسيرة الرحلة ثم يمدح أو يفاخر، وعلى هذا الأساس سلمت للقصيدة العربية أشكال فنية كانت موضع احتذاء في الأعصر المتأخرة.

ومن جهة المضامين لم تخرج أغلب مطولات العرب عن موضوعات المدح والهجاء والرثاء والغزل والوصف، وهو أوسع موضوعات الشعر، لقول القدمـاء: الشعر إلا أقله داخل في باب الوصف(١).

وربما برزت موضوعات فرعية بعد ذلك كانت مستأصلة من رحم الموضوعات الأساسية كالاعتذاريات عند النابغة في الجاهلية، والنقائض عند جرير وأضرابه في عهد بني أمية، والمجون والزهد في العصر العباسي، وهذه الموضوعات المستحدثة ظلت تحتفظ بوفائها الشديد لشروط الفن الشعري، بدليل أن اعتذاريات النابغة لا تختلف من حيث الأسلوب عن مدائحـه وأوصافه المختلفة، وكذا النقائض حملت علامات فن جرير والأخطل والفرزدق وغيرهم ممن كان يشاتم أقرانه من الشعراء، ومثل ذلك يصدق على مجون الشعراء العباسيين وزهدهم.

ويستطيع المتأمل أن يلاحظ أن الشعر العربي في اتجاهاته الأساسية كان ماضيا نحو الفن، وما يستلزمه ذلك المضي من تجويد الأدوات والعناية الفائقة بالمعاني والأوزان والقوافي، لا يحول بينه وبين ذلك شيء على الإطلاق.

(١) ابن رشيق (العمدة) تحقيق: محمد قرقزان، طبع دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٣م، ٢١٣/٢.

وهذا الصنيع يفضي إلى أن الشاعر العربي عاش لفنه، بكل ما تعنيه هذه العبارة من معنى، أي لم يعن كثيرا بالموضوع، لأن غاية التجويد عنده كانت تتحدد بإقناع الجمهور الذي يتلقى شعره، ليؤكد لمستمعيه على الدوام أنه شاعر فريد لم يأت أحد بمثل ما يأتي به.

وعلى هذا النحو أصبح للشعر العربي منذ الجاهلية موضوعاته وأدواته وطقوسه الخاصة به، ومع تطور المجتمع العربي، بقي الشعر منطويا على موضوعاته لا يخرج عنها البتة، ولما اتسعت الحياة العربية في العصر العباسي أغرت الظروف الاجتماعية الصعبة بعض الشعراء، فتحولوا في بعض شعرهم عن تمثيل الحياة الرسمية وما تستلزمه من مديح الأشراف، أو وصف الأحداث، أو العكوف على الوجدان وتصوير أحوال الذات في سعادتها وشقائها، إلى جانب آخر نقلوا فيه صدى حياة العامة، وما يتخللها من بؤس وظلم وشقاء، وكان أبان اللاحقي قد صور في بعض شعره ظلم عمال الخراج فقال(٢):

أبا علي إليـك نـشكو ظلمـًا عرانا بـه مغـير
يزعم أموالنا خراجـ ـًا وهي كما لم تزل عشور

ثم برز أبو العتاهية لينصح الخليفة ويحضه على إصلاح أمور الرعية في قصيدة قل نظيرها في الشعر العربي جاء فيها(٣):

من مبلـغٌ عنـي الإمـ ـ ـا م نصائحـ ـًا متواليـ ـ ـْه
أني أرى الأسـعار أسـ ـ ـ ـعـار الرعيـ ـة غاليـ ـه
وأرى المكاسب نـ ـ ـ ـزرةً وأرى الضرورةَ فاشيـ ـ ـه

(٢) أبو العتاهية (ديوانه) ص:١٣٦.
(٣) الصولي (الأوراق) تح: هيوراث دن، ط بمصر ١٩٣٦م، ص:٢٣.

وأرى غموم الـ ـدهـ ـر را ئحـة تمـر وغـ ـ ـ ـاديه
وأرى البتـ ـ ـ ـامى والأرا ملَ في البيـوت الخاليـ ـ ـه
وأرى المراضع فيه عـ ـ ـن أولادهـ ـا متجافيـ ـ ـ ـه
من بيـن راج لم يـ ـ ـ ـزل يسـ ـمو إليـ ـك وراجيـه
يشكون مجهـ ـ ـدة بأصـ ـوات ضعـ ـاف عاليـ ـه
يرجون رفـ ـدك كي يـروا مـ ـا لقـ ـوه العافيـ ـ ـه
من يرتجى في النـاس غيـ ـ ـرك للعيـ ـون الباكيـه
من مصيبـات جـ ـ ـوعٍ تمسـ ـي وتصبح طاويـ ـه
من يرتجـى لدفاع كـ ـر بِ ملمـ ـة هـي مـا هـيه
مـن للبطـون الجائعـ ـ ـا ت وللجسـوم العاريـ ـ ـه
من لارتيـ ـاع المـسلميـ ـ ـن إذا سمعنـا الواعيـ ـه
يا بن الخلائف لا فقـ ـ ـد ت ولا عدمـت العافيـ ـه
إن الأصـ ـ ـول الطيبـ ـا ت لهـ ـا فروع زاكيـ ـه
ألقيت أخبـ ـارا إليـ ـ ـ ـ ـك من الرعيـة شافيـ ـه
ونـصيحتي لـك محـضـة ومـودتي لك صافيـ ـ ـ ـه

في هذه القصيدة ينتبه أبو العتاهية إلى جانب قلّما استرعى انتباه الشعراء السابقين، وهو الجانب المظلم في الحياة العباسية، أعني حياة البائسين من الفقراء والمعوزين الذين لم تصل أصواتهم إلى أولي الأمر، فنصب أبو العتاهية نفسه متكلما على مآسيهم، ومطالبا بحقوقهم، بعد أن أزرى بهم دهرهم، وانصرف عنهم حكامهم، وكان الشعر العربي في تلك المرحلة لا يحفل بمثل هذه الصور على الإطلاق، حتى ظننا أنّ الحياة العباسية التي نقلها الشعراء هي تلك التي كان الرخاء

والثراء يسودانها، وما تلك في الواقع إلا حياة كانت تتهيأ بين ظلال القصور، أما حياة العامة والدهماء والسواد الأعظم من الناس فكانت قاتمة مجللة بالسواد كما صورها أبو العتاهية في قصيدته وربما أشد.

تبدو الحياة التي تصورها القصيدة ضنكة قاسية ليس فيها حاشية كالحواشي التي تزدان بها حياة الملوك والأغنياء، وكان السادة صكوا وجوههم أمام كل محتاج ومعوز أضنته الفاقة وجهد به الفقر، لتنغلق أسماع الأغنياء عن أصوات المرضعات والمصبيات والأرامل والثكالى، فإذا بالحكام يلوذون في نعيمهم بعيدين عن سماع استغاثة الجُوع، وإذا بأصحاب الأمر لا يصيخون إلى صدى تلك الحياة القاسية، لا بل ليست هنالك أصوات مدوية تنذر بالفاجعة سوى صوت قصيدة أبي العتاهية التي تستعطف الخليفة تارة كي يرأف بحال المغلوبين، ويعين ذوي الحاجات على قضاء حاجاتهم، وتارة أخرى تحذره مما لا يحمد عقباه، إذ المجهدون الذي يستصرخون الخليفة بأصوات ضعاف عالية لن يصبروا طويلاً على جوعهم وبؤسهم.

تمتاز هذه القصيدة بخطاب جديد كل الجدة، إذ نراها لا تحفل بقضايا الشعر، وإنما تركن إلى الاحتفال بقضايا المجتمع، ولا تنتصر للقيم التي تعاورها الشعراء فيما بينهم ليظهروا براعة نظمهم في المحافل، بل انتصرت لقضايا الناس، فصورت أوضاعهم كما أصبح يصوره أدب الواقعيين اليوم، ونقلت تفصيلات شقائهم، كما صنع الأدباء المحدثون، الذين نقلوا دقائق ما تنبض به حياة البائسين، وكذا حذرت من ثوران الجوع والمحرومين، كما يحذر الأدباء الواقعيون من ثورة الجياع، وإذا بأبي العتاهية بعد الذي نلحظه في قصيدته رائد في مجال الأدب الاجتماعي، لا يسبقه أحد من الشعراء في هذا المضمار، وإذا به يعي قضية الالتزام بقضايا الناس كما يعيها المثقفون اليوم، وفوق ذلك كله نراه يخلّص القصيدة من كلّ مباهجها وزينتها

لتخلص عارية لمضمونها الثقيل، ولا شيء سوى ذلك، ومن هنا ندرك صنيعه الباهر في هذا الباب، إذ نجده يغسل قصيدته تماما من ظواهر الفن، لتكون مطية لينة لقضية الإنسان المقهور المكبل بعذابات الفقر والمرض والبطالة والظلم.

صحيح أن الرصيد الفني قد قلّ في هذه القصيدة، إلا أنها ربحت من ناحية أخرى أعظم مما كانت قد خسرته، لقد ربحت قضية الإنسان، فأصبح الفن فيها موجها لغرض اجتماعي، وملتزما بقضايا الفقراء والمقهورين ، مدافعا عن حقوقهم، محذرا من مجافاتهم. من أجل كل ذلك نقول: إن أبا العتاهية هنا يؤسس ظاهرة فنية تلتزم بقضايا مجتمعه أحسن ما يكون الالتزام، ثم يحرك بعضا من معانيه ليظهر للخليفة وميض ثورة كامنة في بطون الجياع من الكادحين والفقراء والمرضى والأرامل والعاطلين عن العمل، وبهذا يفتح بابا واسعا من أبواب الشعر العربي في هذا العصر على أوضاع المجتمع وأحوال الناس كاد أن يكون موصدا من قبلُ.

لقد كان يرى في المطالبة بحقوق الناس غنما يربحه الشعر، لا بل كان ذلك من حقوق المجتمع على أبنائه المبدعين، وهو في ذلك المطلب إنما يعبر عن حاجة الشعر إلى موضوع جديد كحاجة المجتمع إلى صوت مسموع يطالب بحقوقه، وهذا باب ولجه أبو العتاهية ليلفت النظر إلى أن هناك فنا آخر مهما غير الفن الذي حفلت به القصيدة العربية في موضوعاتها الرسمية، إنه الفن الملتزم بقضايا المجتمع.

لهذه الأسباب جميعا يمكن القول بأن أبا العتاهية يعد رائدا في باب الشعر الملتزم بقضايا الناس المغلوبين، معبرا لأول مرة أن بوسع القصيدة العربية أن تنـزل من عليائها، وتطوي تاريخ فنها لتستحيل صيغة من صيغ الاحتجاج على الأوضاع الاجتماعية المتردية، وتصور بكامل الجرأة أن الفن يحسن أن يقوم بوظيفة اجتماعية ليصبح فاعلاً في الدفاع عن مجتمع مغلوب قبل الارتقاء به وتطويره.

لقد فتح أبو العتاهية بابا إذن أمام الشعراء ليغمسوا مداد أقلامهم بصور البؤس الاجتماعي، وقد مضى غير واحد من الشعراء على سنن أبي العتاهية، منهم ابن أبي السعلاة الذي تبـع خطوات أبي العتاهية في احتفاله الشديد بقضايا مجتمعه، وهو الشاعر الذي نسيته المصادر والمدونات الأدبية على كثرتها وتنوع مضامينها، إذ لم نقف على شيء يخص الرجل في تراث السابقين إلا قصيدة مطولة واحدة تقارب قصيدة أبي العتاهية من حيث الأهمية، إن لم تفقها لشدة إمعانها في أحوال المجتمع وتفصيلها في إبراز الجوانب السلبية التي كانت تتراءى في الحياة العباسية.

ويرجح أن ابن أبي السعلاة، إن لم يكن معاصرا لأبي العتاهية، فهو من غير شك قد ظهر بعده بقليل، لأن الأحداث التي يعرضها في قصيدته جرى أغلبها في نهاية القرن الثاني وأوائل القرن الثالث، وأبو العتاهية عاش في هذا الزمن نفسه ، لأن وفاته على أرجح الأقوال كانت في سنة ٢١٠ هجرية أي في بداية القرن الثالث، غير أن وفاة ابن أبي السعلاة ليست معروفة بالدقة التي عرفت فيها وفاة أبي العتاهية، والوقوف عند هذه المسألة مهم جدا، لأن ابن أبي السعلاة قد يكون السابق إلى المضمون الاجتماعي المتكامل في الشعر، غير أن وضوح سيرة أبي العتاهية، وغموض سيرة ابن أبي السعلاة يجعل من الإنصاف التنويه بالواضحة سيرته أولاً، خوفًا من أن يكون ابن أبي السعلاة، وهو مجهول للدرس الأدبي تماما، متأخرا بالفعل عن أبي العتاهية.

ومهما يكن من أمر، فإن قصيدة ابن أبي السعلاة، برزت وثيقة تدين مجتمعا تنكر لأبنائه تنكرا لا يحسن معه تسويغ، ثم إنها قد تكون فريدة من حيث طولها، ومن حيث دلالاتها الواضحة على فساد الأمور في عهد بني العباس، أي في الزمن الذي تصوره القصيدة، لهذا فهي تنهض بجانب قصيدة أبي العتاهية لترسم صورة

مناقضة تماما لما رسمه الشعر العباسي بموضوعاته الرسمية في ظلال القصور، وفي حياة النعيم التي كان يحياها الموسرون، ومن كان يحتك بهم من الشعراء.

في هاتين القصيدتين لا نقرأ شيئًا عن حياة الرفه والسرور، ولا نقرأ شيئًا عن مجالس الأنس التي كانت تتحلى بالقيان وبالمغنين وبالولدان الطائفين بأباريقهم على الشاربين، وإنما نقرأ كلاما يشف عن ألم يعتصر القصيدة وهي تستكشف أوضاعا اجتماعية يسودها القهر والتجبر والظلم والعدوان ساعةَ لا يجد المغلوب نصيرا، والجائع مطْعما، والمستغيث مجيرا، سوى وميض ينبعث من قلب قصيدة كقصيدة ابن أبي السعلاة وهي تضطرم غضبا وتتميز غيظًا وحنقًا على أولئك الذين استخلصوا ثرواتهم من شقاء المعذبين، واستنبطوا سعادتهم من آلام المحرومين، يقول في مطلعها(٤):

ألـم تـر أني والحـوادثُ جمـةٌ
لهُن صروف بـالفَتى تتـصرف
تبدلت بالمصرِ السواد فلم يكُن
به بدلٌ أعتـاض منـه وأخلـف
ومعتصمٍ لم يعـرف اللهَ قلبـه
ويظهر قوم أنـه متحنـف
تعروا من الأخلاقِ إلا سـعايةً
فكلّهم فيها يخب ويوجِف(٥)
وأصدقُهم في القولِ من هو كاذب

(٤) النجار، شعراء عباسيون منسيون ٢٣١/٢.

(٥) وجف الشيءُ: إذا اضطرب.

وأوفاهم بالوعد من هو مخلف
بلاد يضر الحُر فيهـا بنفـسِه
ويعتب فيها المُـسلم المتعفـف
إلى اللهِ أشكو مالنا من ظُلامـة
وفي الله للمظلومِ كاف ومنصف
تحيفنا العمالُ من كل جانـبٍ
ولا يستطاع العاملُ المتحيف(٦)
بكوفتنا والٍ علـى صـلواتنا
ظلوم غَشوم ظاهر الفُسقِ مترف
وقاضٍ ضعيف الحلْمِ والعقلِ جاهلٌ
يصد عن الحق المبينِ ويجنف(٧)
يغير على أموالنـا وضـياعنا
فيسعده القاضي عليها ويكنف(٨)
فإنْ لفف الوالي علينا شـهوده
زكا عنه قاضينا الشهيد الملفف(٩)
وحجتنا لا تقبلُ الدهر عنـده
وشاهدنا عن عمد عينٍ موقف

(٦) تحيف الشيء: تنقصه.
(٧) جنف في حكمه: أي مال عن الحق.
(٨) يكنف: يحفظ.
(٩) اللفف: الصنف من الناس من خير أو من شر.

فررنا إلى القاضي مخافةَ غـيرِه
فكان من القاضي التي هي أخوف
وأضحى علينا عاملان بباب ـلٍ
أخو ذَنبٍ لا خير فيه وأقْلَف(١٠)
يسيران فينا سيرةً ما أتـى بهـا
رسولٌ ولا وحي من الله يعرف

لا يحفل الشاعر بما كان يحفل به الشعراء في مسألة بناء الشعر، فهو يعرض إعراضا تاما عن المقدمات، كما يتحلل كليا من الرسوم التي مضى وفقها الشعر العربي في موضوعاته المختلفة، ولا ترى من أثر الصنعة الفنية والمهارة الكلامية ما يدلك على أن القصيدة تحاكي نموذجا سابقًا لا من شعر الجاهليين ولا من شعر غيرهم، والسبب في ذلك أنّ موضوع القصيدة جديد، فرض لغة وأسلوبا وأدوات فنيةً تختلف عن لغة الشعراء السابقين وأسلوبهم وأدواتهم كافة، من أجل ذلك بدا الموضوع وكأنه يؤسس لنفسه في هذه القصيدة قيما لغويـة وفنية خاصة به، تفرضه بصورة واضحة طريقة المعالجة التي قدمت لنا موضوعا اجتماعيا كاملاً لا تنقصه الواقعية، ولا يفتقر إلى الرؤية بكل ما تعنيه هذه العبارات من معنى.

وليس ببعيد أن يكون ابن أبي السعلاة قد ترسم خطوات أبي العتاهية في بناء قصيدته السابقة، وقد يكون العكس صحيحا، بمعنى قد يكون ابن أبي السعلاة سابقًا لأبي العتاهية في هذا الموضوع، لأننا لا نعلم متى توفي على وجـه التقريب، وعلى أية حال فإن ابن أبي السعلاة قدم موضوعا وافيا لم تحط به قصيدة أبي العتاهية المذكورة سابقًا.

(١٠) الأقلف: من قطعت جلدته.

يبدأ ابن أبي السعلاة بداية تشي وكأنه يريد أن يعالج موضوعا فنيا تقليديا، ليظهر في مطلعه البارع أنه أمسى جازعا وناقما ومتسخطًا مصائب الدهر ونكبات الزمان التي تصرفت به، ولم يجد منصرفًا عنها إلا أن يسلط الضوء على بقاع العراق بقعة بقعة، ثم يحدق فيما آلت أمورها من سوء، فإذا به يشمل في كلامه على النكبات صنائع العمال والولاة والقضاة والصيارفة وكل من له يد في تعاسة الفقراء المقهورين، مبتدئًا بسواد العراق الذي استحال موطنا للنبط بعد أن أعيت الضرائب المزارعين فتركوا أرضهم نهبى للعمال.

وبعد ذلك يوجه أصابع الاتهام إلى المعتصم الذي قسا قلبه عن ذكر الله فلم يتق غضبه مما تكبده من إجحاف بحق الناس، ولا ندري أهو يقصد المعتصم بالله الخليفة العباسي المشهور، أم يريد أي معتصم يدعي التقى وهو فاسق قلبه.

وعلى أي حال فإنّ الواضح أنه يريد التعريض بفئة غالبة في المجتمع العباسي على رأسها الولاة والقضاة والعمال الذين أشبعوا الناس ظلما وجورا، وهم فوق ذلك كانوا عراة من الأخلاق ديدنهم الكذب والافتراء والإخلاف بالوعد.

لقد أصاب حيف العمال الناس جميعا، والشاعر هنا يتحدث بضمير الجمع، فهاهوذا والي الكوفة قد منع الناس من الصلاة، لأنه ظالم غشوم فاسق مترف، يؤازره في ظلمه قاض ضعيف العقل جاهل يميل عن الحق.

إذْ استمرأ الوالي الإغارة على أموال الناس، ولم يجد المظلومون من يشتكون إليه، فإذا ما لاذوا بالقاضي وجدوه أشد ظلما وأوسع جورا، وليس ذلك فحسب بل كان من شأنه مناصرة الوالي في بغيه وتصديق شهوده، وإلحاق المزيد من الأذى بالمظلومين من أصحاب الحقوق.

ثم يسلط الضوء على مدينة بابل وعامليها الجائرين الأحمقين اللذين أشبعا الناس ظلما وتنكيلاً، فحكما بما يخالف الشريعة فعصيا ربهما، وخالفا سنة النبي صلى الله عليه وسلم، إذ هما وبختنصر سواء من حيث العسف والعتو والجور والفظاظة.

ويذكر واليا اسمه عمرو، لم نهتد إليه في المصادر، وربما استعمل هذا الاسم على جهة الرمز، والمهم أن ذلك الوالي أطرف من ابن النبيطة من جهة لؤم الطباع وفساد الأخلاق.

هذه الصورة البائسة للمجتمع العباسي في مركز خلافته العراق، يصوغ الشاعر رسالته النقدية إلى الأمير، ثم ينعت رسالته بأنها أحسن الكلام بناءً وأحكمه رصفًا، والواقع أن رسالته لا شيء فيها أعظم من كونها وثيقة تدقق فيما آلت إليه أمور الناس من سوءٍ وما لحقهم من جور وظلم.

يبدو أن الأمير كان بمنأى عما كان يقوم به عماله في الولايات المختلفة، ولايزال الكلام في البيت الثلاثين وما بعده متعلقًا بسيرة الواليين اللذين ذكرهما في الأبيات السابقة، وقد نعتهما هنا بقوله «علجان» زيادة في التهكم والسخرية والتصغير والاحتقار، إذ هما ألزما أهل الضياع ضريبة مرهقة، واستغلا وظيفتيهما لابتزاز الناس والسطو على أموالهم، وكانا يسلّطان عمال الجباية على الناس فإذا بالظلم يتضاعف، والبؤس يستشري، ليعيش الناس في مزيد من الحرمان مع أنهم من أصحاب الغلال، إلا أن غلالهم تذهب إلى الولاة والجباة وإلى دواب المستخلفين.

إن أرزاق العمال منوطة بالفلاحين في أرض العراق، فإذا ما نزلوا بضيعة ذُبح لهم الدجاج وعقرت لهم الجداء، وإذا ما تم جني المحاصيل خصصت لهم الحصص الوافية، وكذا الحزاورة الخراصون أي صغار الجباة الذين يبدون عفة في الظاهر إلا أنهم في الحقيقة يشاركون في سلب أموال الناس، إذ كانوا يكلفون الناس فوق

طاقتهم، وليس بعيدا عنهم من كان يكيل الغلات مطففًا في ميزانه، جائرا على الناس قاسما قُوتهم بالترهات، مستلبا أضعاف أجره، مستخرجا من كيله شرطه، ولا سبيل للاعتراض، ولا مجال للشكوى.

ولم يسلم الناس في ذلك الزمان من استغلال الصيارفة، وجنف الكُتاب الذين يلاحقون الناس لتحصيل الضرائب لمصلحة الولاة، فما إن يؤدي المرء ضريبة حتى تأتيه ضريبة أخرى مضاعفة.

كان من بين الولاة من يفرض الجزية على المسلمين زيادة في الظلم، وإمعانا في عصيان الشريعة، كما كانوا يأخذون الصدقات ويجعلونها في أموالهم، منذرين الناس بالعذاب حتى شقي العباد واستحال عيشهم جحيما لا يطاق.

والقصيدة التي حملت هذا المضمون الثقيل لم تجد بدا من طلب نصرة الأمير ليدرك بقية من الناس كادت تهلك، ويحاسب في الوقت نفسه العمال الذين ساموا الناس عذابا.

تنبثق ظاهرة الفن في هذه القصيدة وأشباهها من جدة موضوعها، مع أن الموضوع الفني لم يكن عند كثير من النقاد ذا أثر في قيمة الشعر، وهذا ميزان صوبه الكثيرون ممن أخلص في دراسته قضايا الفن الشعري، لأن الفنون عامة والأشعار خاصة محكومة بسطوة السياق قبل كل شيء، إذ المدح مدح سواء صدر عن جاهلي أم عباسي، ولكن الصياغة قد تختلف، من أجل ذلك كانت المفاضلة لا تقوم بين موضوع وموضوع، بل بين طريقة وطريقة أخرى، لتغدو الأساليب الشعرية مضمارا للموازنة، غير أن النقد العربي منذ نشوئه اهتم بفرادة المعاني والسبق إلى اختراعها، كما انتبه إلى الأفكار المستحدثة، وأما الموضوعات فنادرا ما كانت تلقى اهتماما كافيا، والسبب في ذلك أن التجديد على صعيد الموضوع لم يكن هينا، فمن الشعراء

من خرج على موضوعات الشعر التقليدية، غير أن حظه من التوفيق كان ضئيلاً، ومع تقدم المباحث النقدية في العصر الحديث، وظهور الكثير من التيارات الفكرية، برزت أهمية المضامين الاجتماعية، كان ذلك عقب تراجع قيم الفن الكلاسيكي في العصر الحديث، إذ الأدب لم يعد يمعن في تصوير حياة الخاصة، كذلك لم يعش خالصا لقضاياه، مع أن نظرية الفن للفن كان لها حيز في زمننا، ولا يزال وميضها يسترعي انتباه كثير من الأدباء والنقاد، ولكن مع تغير وظائف الأدب ظهرت المضامين الاجتماعية بقوة في نتاج الأدباء، لإمعانهم في تصوير حياة الناس، ونقد أوضاع المجتمع السلبية بغية إزالة الظلم عنه، على هذا نقول: برزت تيارات اجتماعية في الأدب العربي الحديث، ونجد لزاما علينا أن نشير إلى أن الأدب القديم قد كان له إسهام في هذا الموضوع، كما هو الشأن عند أبي العتاهية وعند ابن أبي السعلاة، وربما عند غيرهما من الشعراء الذين لم يكن بالمستطاع تناول آثارهم في هذا المبحث المختصر.

إذن تكمن قيمة المضمون الاجتماعي في العصر العباسي في كونه ينحاز إلى الحياة العامة، مصورا ما كان يعتريها من نكبات، مسلطًا الضوء على ظواهرها السلبية، محققًا في ذلك رسالة اجتماعية، كان على الفـن النهوض بها على الدوام، وإذْ قد تكرر هذا الموضوع على لسان غير واحد من الشعراء، فإنه باب لدراسة أوضاع المجتمع العربي في العصر العباسي، ذلك لأن الصور السائدة في المباحث الأدبية تشير إلى إمعانه في الرخاء والثراء، وهذه لعمرك صور مغلوطة صححتها قصيدة ابن أبي السعلاة وأضرابه، ليستعيد الفن الشعري العباسي توازنه، مقدما صورة واقعية وحقيقية عن مجتمعه.